مريم المجدلية ...

بعد ثمانية عشر قرناً

للكاتبة الإنجليزية " بارونس أورزي "

بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

لما خرج أرنست كنزلو من سجن لاجيوتيير بمدينة ليون في أصيل يوم ١٤ مسيدور من السنة الثالثة للثورة الفرنسية ، كان الخادم صاحب الرداء الرسمي البنفسجي ذي السجاف والطراز الأحمرين ، في انتظاره ، فتناول هذا الخادم أمتعة الفتى ارنست ، وكانت نزرة يسيرة ، ثم خرج به من ذلك المكان المنكر سجن لاجيوتيير ، وسلك طريق رامپاردينى ، إلى ضفة نهر الرون عابراً ذلك الجسر الحجرى العتيق ، الذى مرت عليه جحافل الصليبيين في طريقهم من قلب بيرجندى وبيرجونى إلى رومة ومالطة ، فالشرق الأدنى لمحاربة العرب ، أتباع صلاح الدين الذى تغلب على معظم أمراء فرنسا وانجلترا ... فاستحضر الخادم قارباً ، فركباه وارتفعا في النهر إلى قرية كولانج ، وجعل ارنست كنزلو في أثناء ذلك يخال أن الشمس لم تكن قط أشرق منها في هذا النهار ، ولا أبهى رونقاً ولا أبهر لألاء ، ولا كان النسيم أروح قط منه في هذه الساعة ولا أبرد على الأكباد ، ولا أندى على القلوب ، ولا أنعش الأرواح والأبدان . وبينما يرتقيان مع العباب الزاخر ، يعملان المجاديف ، خيل إليه أن حديقة بيلكور ، قطعة من رياض الجنة ، وامتلأ قلبه سروراً وجذلا لمنظر الأرصفة والدكك والمباني القائمة على ضفاف النهر مثل باليه رويال ، ودير لاشاريتى حيث كان قد شرع في بناء الجسر الفاخر الجديد ، وبرج كارز چوبيه وقصر الحرية ، ومنظر نهر الرون تتلألأ صفحته رونقاً ويتوهج متنه بريقاً يضاحك حاجب الشمس وتلاعبه الأشعة ، قد ازدحمت على صدره القوارب والزوارق — هذه المناظر الجمة المختلفة أفعمت قلبه فرحاً ، وهزت أعطافه مرحاً .

ولا جرم أن يطرب لأمثال ذلك المنظر حديث العهد بالسجن ، قد لبث طويلاً في ظلمات وحشة يضاعف ظلامها سواد همومه وأشجانه ... وما زالا يستحثان القارب ارتفاعاً في النهر ، حتى انتهيا إلى قرية كولانج

تعريف بالقصة

بارونس أورزى أو البارونه أورسای Orezy من أشهر كاتبات القصص في اللغة الانكليزية . نبيلة بريطانية ، مختلطة الجنسين الفرنسي والسكسوني ، تسلسلت من نبلاء فرنسيس هاجروا إلى انجلترا أيام الثورة الفرنسية ولذا اتخذت موضوع الثورة وحياة فرنسا وانجلترا لمعظم قصصها ومنها « الزهرة القرمزية » ، سوف أسدد دينى ، البدورادو . وقد اتخذت پيرنل رمزاً لشخصية فتى محبوب جعلته بطلا لكثير من قصصها الطويل في مغامرات النبلاء أثناء الثورة . وهذه القصة التي ننقلها إلى العربية تحكى تاريخ فتى فرنسى ارنست كنزلو ، يبحث عن سر عميق لقاء سر آخر ، يهبه لمن يهديه إلى سر مولده وفيها وصف جميل للاشراف والجزويت وتحليل للاخلاق والنفسيات وهى منشورة في مجموعة مغامرات پيرنل

(The adventures of the scarlet Pinpernel.)

الحسناء ، المضمنة طائفة عديدة من منازل بديعة وبقية للأشراف والسادة ، الذين عملت الثورة على تقويض مجدهم وهدم صروح عظمتهم وتبديد ثروتهم ، ومصادرة أملاكهم والقضاء على مظاهر قوتهم ، بعد أن ظلموا الرعية وانتهكوا الحرمات ، وناءوا بكلكلهم على صدور الأمة فامتصوا دماءها واستعبدوها وهم أجراؤها وخدامها . وكان هؤلاء السادة من الأعيان والأرستقراطية ، وعبّاد الشهوات وسدنة هياكل المال قد تعلق منهم بأذيال الفرار من تعلق ، واختبأ فى خفايا القصور العتيقة من اختبأ ، وما كان يجرؤ على الظهور منهم إلا المسلح المدرع الذى يستطيع أن يدافع عن نفسه . أما خدمهم فكانوا يسرحون ويمرحون ، ولا جناح عليهم ، لأنهم من طبقة الشعب ولا يتميزون عليه إلا بآثار النعمة البادية عليهم . كذلك الخادم الذى كان فى انتظار أرنست كنزلو بساحة السجن ، فى عصر ذلك النهار . وكذلك وصلا إلى دار النبيلة الكونته — وهى دار بهيجة جديدة ، إذ كانت من منشآت العام الأخير من حكم لويس الرابع عشر ، وهى فى الصف المواجه للنهر ، وراءها بستان أنيق ، وهى تشرف على مشهدين جميلين ، أحدهما تلقاء بواسالك والثانى ناحية سان بول ، حيث يقوم القصر الفخم العتيق — قصر البرنس بوربون

* * *

فى بهو الكونتيس أبصر أرنست كنزلو بعض تلك الصور التى كانت فى قصر جرانمولان ، والتى قد نقلتها السيدة النبيلة إزابيل دى كابيت إلى دارها الجديدة عقب وفاة زوجها — وهو والد أرنست كنزلو — من امرأة من الشعب . وفى أخص مكان وأشرف موضع كانت ترى صورة السيدة النبيلة الكونته إزابل دى كابيت بريشة المعلم دافيد . ذلك المصور النابغ الذى امتد به أجله حتى رسم بريشته تصاوير نابوليون وجوزفين بوهارنيه وجميع الأمراء والأميرات من أسرة بونابرته ، بعد أن رسم تصاوير دانتون وروبز بيير ومارات وشارلوت كورداى . وقد قيل فى ذلك الحين إن هذا الرسام الذى لا ضمير له ولا كرامة (كذا وما أنا إلا ناقل) قد دنس ريشته بتصوير أوغاد الثورة ، بعد أن شرفه الملوك بنقش صورهم ! ! ولكن دافيد كان طوال حياته مفلوكاً متمسكناً ، لا يبالى شيئاً فقد رسم صورة مارى أنطوانيت وصورة جوزفين بوهارنيه ، وجمع بين اللوحتين فى بهو مرسمه وقال لصديقه جوراندى « هاك صورتى داعرتين ممتازتين ، الأولى أوصلتها العظمة الامبراطورية إلى الفجر والفسوق ، والثانية أوصلها الفجر والفسوق إلى العظمة الامبراطورية » وقد نقلها جوراندى إلى رجال الحكم وإلى ذلك الداهية تاليران ، فهز كتفه وقال :

« دافيد قالها ، وأنت تنقلها إلىّ ؟ علام تريدنى أن أفعل به ؟ إنه مفتن ، وكل مفتن مجنون ، أترانى أقدمه للمحاكمة . إن عهد فوكييه دى تنتفيل قد انتهى ، المحكمة الثورية قد غلقت أبوابها ... ولكننى أستطيع أن أعمل شيئاً يسرنى ويسره ، أى دافيد ، وهو أن ...

فقال له جوراندى : ما هو ياموسيو تاليران ؟

فقال : سترى عما قريب . ثم صرفه ولم يكد هذا الصديق الخائن يبلغ باب الديوان ، حتى أمر تاليران بالقبض عليه بتهمة التجسس . . لقد مرت

هذه الخواطر برأس أرنست كنزلو الابن الطبيعي لزوج الكونتة إيزابيل دى كابيت فى هيأة ربة الصيد « ديانا » وعليها سابرية صفراء ، وفى يدها قوس ، وعلى جبينها هلال ، وحولها كلاب تثب وتمرح . وكانت هذه الصورة قد نقشت أيام كان العشاق الملوكيون يترددون إلى ربة الصيد العذراء (إيزابل) فيلقون عندها منزلة وزلفى .

وكما أن الالهات لا يَشِبْنَ ولا يهرمن ، بل ينعمن بصِبًا دائم ، وشباب سرمدى ، فكذلك ما برحت هذه الإلهة (الكونتس ايزابل) إلى يوم وفاتها تعتقد أنها لم تكبر قط ولا كان للزمن أدنى سلطان على شبابها ، وهكذا لبثت طول عمرها ترى أن الصورة لا تزال تحكى حسنها وتمثل جمالها

كان أرنست كنزلو يريد الوقوف على سر مولده ، وكانت السيدة تريد الوقوف على سر مقتل زوجها ، الذى كان الفتى بسببه سجيناً . بعد أن سيق أرنست كنزلو إلى حجرة السيدة بواسطة خادم الغرفة ، وانتظاره هنالك المدة التى تقتضيها مراسم التشريفات وآداب الزيارات ، تنزلت الإلهة «ديانا» إلى الظهور للفتى ، فجاء يتقدمها زنجى أسود في زى الأتراك ، أحمر الحذاءين فى عنقه طوق من الفضة منقوش عليه شارة الفيكونتس ، وهو يحمل وسادة السيدة ثم تبعته وصيفتها وجاء بعد ذلك طائفة من كلاب الصيد ينبحن ويمرحن أمام الصائدة ذات الجلال والعظمة . ثم أقبلت السيدة الكونتة ذاتها تنثر صنوف الطيب الغالية ، وفنون العبق والشذا ذات اليمين وذات الشمال . وما زال أرنست كنزلو يذكر منذ طفولته أَرَجَ المسك الذكى الذى كان يفوح ويتضوع من أردان زوجة أبيه

وكما أن الأفق الغربى يزداد حمرة كلما ازدادت الشمس دنواً من المغيب ، فكذلك كنت ترى السيدة الأرملة يزداد خدها حمرة كلما ازدادت دُنواً من أجلها ، فلقد كان وجهها يتوهج بالدهان القرمزى الذى كان يضاعف وهجه بياض مايجاوره من الطلاء وكانت تلبس من الشعر ذلك النمط المجعد المسلسل الذى كان مألوفاً أيام الملك لويس الرابع عشر وكانت عيناها تبرق من وسط هذا البناء العجيب المركب من شتى أنواع الدهان والصبغة والطلاء . وهى ألوان من الأكاذيب . وإن البيت الذى يحل فى وسطه هؤلاء السادة والسيدات ، لجدير بألا يضم بين أكنافه إلا مرائين منافقين ، لاهم لكل منهم إلا أن يكذب على صاحبه ويظهر له غير حقيقته . فالزوج يكذب كلما استقبل الأضياف بوجه باش قد ارتسمت عليه ابتسامة المداراة أو المجاملة ، والزوجة تكذب وتمضى على القذى وتسيغ الشجى وتظل طول حياتها فى كذب مستمر . تكذب على زوجها وشريك حياتها وقسيم روحها ، وتكذب إذا أمرت طفلها الصغير باحترام أبيه العزيز ، وتكذب إذا أكدت لأبيها أنها في هناء تام وعيش سعيد ، والخدم أيضاً يكذبون كلما تظاهروا بالخشية والخشوع وهم ماثلون وراء كرسى مولاهم ، وكلما تغافلوا عما يقع من النزاع تحت أعينهم . وكذلك يقضى القوم حياتهم من مطلع الشمس إلى موعد النوم فى كذب ونفاق ، ثم ترى أدعياء الحكمة يمتدحون ذلك الرياء الأبدي ، ويسمونه مراعاة لآداب المعاشرة واحتفاظاً بقواعد المجاملة . أما الصدق والصراحة وقول الحق فليست مثلا صالحة لحسن المعاشرة ولا قدوة طيبة لاستقامة المعيشة ، وبسبب هذا

اتفاق وقعت أغرب حوادث هذه القصة فان الكونت دى كابيت وهو فقيد الكونته إيزابل وبعلها كان قد استقبل فى داره مركيز ديلامور وضافه وأكرم وفادته أياما طوالاً وهو يعلم أن هذا المركيز الماجن قد انفصل عن زوجته وقد وقع له كثير من الحوادث التى لها مساس بالعرض والشرف ، وكان السبب فيها النساء كما هى العادة .

وقد لحظ الفيكونت كابيت حديثاً دار بصوت خافت بين ضيفه وبين قرينته إيزابل ، فلما بغتهما رب الدار (الكونت كابيت) انتهر زوجته قائلا : « قبحك الله أيتها الأفعى الصغيرة ، أخرجى من الغرفة ! »

فصاح المركيز ديلامور قائلا :

إنى مخبرك يا كونت عما قالته لى زوجتك ، ويعلم الله أنى لا أكذب فى حرف واحد منه . لقد تضرعت إلي ، وعيناها مملوءتان بالعبرات ، فى الاقلاع عن ملاعبتك ألعاب الزهر أو الورق ، وأنت أعلم وأدرى هل ذلك السؤال فى مصلحتك أو فى غير مصلحتك

فقال الكونت كابيت بصوت يابس جاف : « لا شك أنه كان فى مصلحتى يا مركيز ! ولا شك فى أنك مثال الانسان الكامل ، وإن الدنيا لتعلم أي قديس طاهر أنت !

فقال المركيز : لست بقديس ، ولست أنت شيطاناً ، ولكن امرأتك ملاك

فقال الكونت : والله لأحاسبنك على هذا

فاعترض المركيز ديلامور قائلا : حقاً يا كونت إن المصاب فى إبهام قدمه بالنقرس ليعجز عن الجرى وراء نساء غيره .

وبعد يومين أعلن ماركيز ديلامور عزمه على الرحيل ، وكان مضيفه الكونت أثناء ذلك يعامله بتأدب متكلف متصنع ، لا شك أنه يخالف ما هو معهود فيه من الصراحة والتبسط ورفع الكلفة ، بيد أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى الظن بأن هذين النبيلين قد افترقا على غير الصداقة والاخاء

ولكنهما افترقا على ضغن كمين ، وحقد دفين ، ونار أشعلتها الغيرة المحرقة . فان الغيرة متى تنبهت لم يكن فى طاقة الأفيون أو المرفين ، بل ولا فى طاقة كل ما حوى الشرق من المخدرات والمسكنات أن تلطف حدتها أو تطفىء جذوتها

فقد اجتمع الكونت والمركيز وانتحلا سبباً للقتال نافهاً عقيب العشاء والمسرح واللعب بالورق . فنادوا على مركبات تسعهم وأصدقاءهم وشهودهم ، وهمسوا فى آذان السائقين بالانطلاق إلى بستان رأس الذهب — بارك تيت دور — فلما بلغوا ذلك المكان نزلوا إزاء حانة — فولى كايمير — وكان الوقت منتصف الليل ، وقد هدأ الناس فى مضاجعهم ، ولم يبق من الأنوار إلا أشعة قليلة تنبعث من نوافذ بعض المنازل . بيد أن الليل كان زاهي النجوم ، والسماء صافية الأديم ، ولم يكن المتنازعون يحتاجون إلى أكثر من هذا لقضاء وطرهم الوبيل ، فدخلوا البستان ولبث السائقون في خارج السور يحرسون البوابة مخافة أن يزعج الاجتماع بعض الناس فانه لم يمض أكثر من دقيقتين حتى سمعت صيحة من السائقين الواقفين خارج البستان يدخنون « شبقاتهم » ويتكئون على السور ، وهم يراقبون سير النضال فى داخله ، فلم ارتست كنزلو من تلك الصيحة أنه قد وقع خطب جسيم ، فدار ملتفتاً ثم انطلق يعدو

إلى حيث وجد الكونت كابيت (زوج الكونتس) صريعاً على الأرض ، وكان الماركيز ديلامور واقفاً عند رأسه يقول بصوت أجوف : « هل أصابك جرح بليغ يا كونت ؟ »

فقال الكونت وهو طريح فى مصرعه :

— أحسبنى بين يدى المنية

فقال الماركيز ديلامور الذى أصاب من الكونت كابيت مقتلا : لا قدر الله ! لا أحسب الأمر كما تظن ! إنى أخبرك والله على ما أقول شهيد : بأنى كنت عازماً على التماس عفوك لو أنك أعطيتنى فرصة لالتماسه . إن سيدتى الماركيزة بريئة من كل ..

فقال الفيكونت المسكين وقد نهض متحاملا ، واتكأ على مرفقه : صه صه ! إن النزاع الذى بيننا لا يتعدى هذه الوريقات ، نعم هذه الوريقات الملعونة (مشيراً إلى أوراق اللعب) وهنا وقع مغشياً عليه، فاستحوذ الرعب على الجميع وحسبوه قد فارق الحياة ، ولكنه لم يكن مات فنقل إلى أحد الخانات العامة ليلفظ أنفاسه الأخيرة

وهناك أشار إلى الجميع إشارة ضعيفة بترك الغرفة ثم قال لارنست كنزلو :

إذن فانصت إلى اعترافى وأنا على فراش الموت

فسألته الكونتيس النبيلة : فماذا قال لك ؟

قال لى : إنه أبى، وإننى ولدت له من امرأة من غمار الشعب ، وهأنذا أطلعتك على ملابسات وفاته ، فأطلعينى على سر مولدى . فصاحت الكونتيس : أشهد الله أنى بريئة من ذلك الاثم فقد حل بك وبأمك رحمها الله ظلامة جسيمة ، وإن أباك الخبيث هو الذى . . . فقال ارنست متمما : الذى جلب هذا العار على أسرتنا . . . أعرف ذلك حق المعرفة ولا أريد تكدير صفاء أحد قط ولا إقلاق راحة إنسان ما . فان ورثة الألقاب والثروة الآن كانوا أكرم أهل ودى ونعمتى وما تعمدونى بسوء قط وحاشاهم

فصاحت الكونتة إزابيل : إننى يا ولدى لم أعرف الحقيقة إلا قبل وفاته ببضعة أشهر . وقد زادنى ألماً أنك سجنت بسبب مصاحبته فى تلك الليلة ولا بد أن يكون بعض النفس عرفوه من سبيل الاعتراف

فقال أرنست : وعليك الآن يا أمه ... يا زوجة أبى الكريمة أن تكشفى لى عن سر مولدى ، فدقة بدقة ، وسر بسر !

فقالت : لقد فحصت عن أمر والدتك ، لأعرف أهى على قيد الحياة أم لا ؟ وقد خبرنى الأب كابان فى آخر زفرات حياته أن والدتك ماتت منذ أعوام عدة ، ولا شك عندى فى مقاله . فقال أرنست : لست أدرى أفى طاقتى إثبات الزواج الذى عقد بين أبى وأمى ، على أنى ما كنت فاعلا لو استطعت ، إذ لا أحب أن ألوث اسمك بالخزى ، أو أسوق الهم والكمد إلى من أكرمونى . فاعلمى أيتها السيدة أن ابن أبى لن يضاعف ما نالك من أذى والده ، فاتقى أرملته ، وامنحينى برك وعطفك فهو كل ما أرجو لديك ، ولن ترينى أذكر ذلك الأمر بعد الساعة

فصاحت الكونتة بالانجليزية ، وكان دأبها أن تنطق بها كلما اهتاجت عواطفها ، لنشوئها فى بلاط الملكة حنة ، ملكة انجلترا أو إيرلاندا

« والله إنك لشريف الطبع كريم السجية »

فقال أرنست منحنياً فى خشوع وتخاضع : « ذلك يا سيدتى البارة ما يقتضيه مقامى . إن فى الدنيا أناساً

طالما وعدت أن أبذل فى سبيلهم روحى جزاء ودهم وحنانهم ، أفيليق بعد ذلك أن أعاديهم وأشاحنهم من جراء لقب ؟ وماذا على أن يكون ذلك اللقب لى أو لهم ما دام في الأسرة ؟

فأجهشت الكونتيس بالبكاء ، وضمت أرنست إلى صدرها وأغدقت عليه من النعم ما أنساه ألم الذكرى والتفكير فى والديه وهما الكونت المظيم ، و « السوقية » التى حملته فى أحشائها ووضعته ولم تستطع إرضاعه ، ولا العناية به ، ولم يقع بصره عليها وهو يدرك أنها أمه . ثم قالت له الكونتيس : إعلم أن الأب لامبير المتكف الآن فى دير نوتر دام دى فورفيير ، بأعلى هضاب المدينة هو الوحيد العالم بمصير المرحومة والدتك ، وقد وكانا إليه تهذيبك فى الصغر ، فأقم ها هنا معنا أياماً ، حتى تستجم من وعثاء السفر

فقال أرنست السجن ... أو السفر ، شيء واحد ثم ندعوه إليك ، فيقص عليك أنباء الصادقة

* * *

ولكن أرنست: لم يجد صبراً فاستأذن الكونتيه وسار قدماً إلى الكنيسة ، بعد أن خلع ثيابه وتزيا بأزياء الصعاليك الذين وصفوهم فى الثورة بعديمى السراويلات « صان كيلوت » ولما بلغ باب الدير واستأذن على الكاهن العتيق أخبره بكل ما وقع وأنهى إليه أنه قد اطلع على أسرار أسرته وصمم على عدم إفشائها ، فأكبره ذلك فى عين الكاهن ، لما أبداه من الايثار وإنكار الذات . وقال فى نفسه عجباً إن فى هؤلاء المجهولى الأصول ، وأولاد الطبيعة والأبناء غير الشرعيين من يسمون بمكارم أخلاقهم درجات فوق أدعياء الحسب والنسب الذين نخر عظامهم سوس الكبرياء والأثرة وحب الذات . فهنا الفضل راجع للأم حتماً ، لا للأب الذى عرفته خبيثاً ماكراً

ثم اعتنق الكاهن المؤدب تلميذه القديم وجعل يهتف بكثير من عبارات الاعجاب والاستحسان قائلا : إن أرنست فتى شريف القلب نبيـل النفس وإنه يفتخر بتلميذه وصديقه وقال له : إنه كان يود أن يهديه إلى الكنيسة الحقة الواحدة التى ينتمى إليها الأب وأن يدمجه فى سلك أشرف الجيوش التى حارب فى صفوفها الانسان — يعنى طائفة اليسوعيين التى تضم بين جنودها (كما يزعم الأب لامبير) أعظم الأبطال الذين دبوا على أديم الغبراء — أبطال شجعان لا يهابون شيئاً ولا يعجزون عن احتمال شيء ، يقابلون الجيش العرمرم بقلوب أيدة ولايخافون لقاء الموت مهما أفزعت صوره — جنود بسلاء ، قد حازوا من الانتصارات مايكسف لألآؤه أبهر فوز أحرزه أبرع القواد ، وغزوا المدائن والشعوب حتى خرجت الأمم ركعاً وسجوداً بين أيدي لوائهم المقدس : الصليب ! وا كتسوا من برود المجد وأكاليل النصر ما هو أسنى وأبهى من أشرف ما تقلده أمجد الفاتحين فى الأرض ، تيجان من النور السرمدي ، وهالات من البهـاء الأزلى ، وآرائك فى أرفع مقامات الفردوس

فشكر أرنست لصديقه القديم ومؤدبه ومعلمه الأب لامبير اليسوعى ، حسن رأيه فيـه وإن كان لا يشاركه فى تحمسه لمذهب الجزويت ، ثم قال وقد أمسك يد صاحبه :

« لقد فكرت فى هذا الأمر أيضاً ياأبى العزيز ، نعم لقد فكرت فى هذه المسألة وحللتها لنفسى ،

كما ينبغى لكل امرىء أن يفعل ، وإنى لباذل جهدى فى سبيل الحق والخير ، وإنى لأعطى الله من حُسن الطاعة وصدق الايمان بحسب طريقتى مثلما تعطيه أنت بحسب طريقتك .. إنى لا أستطيع التصديق بأن القديس فرنسيس جافير قد عام فوق اليم بعباءته ولا أنه أحيا الموتى — لقد حاولت جهدى تصديق ذلك فلم أفلح . ولقد أوشكت ذات مرة أن أصل إلى حد اليقين ولكنى لم أستطع . فدعنى ألتمس الحق وأطلب الهدى وأسأل الله الخير من الطريق الذى أنتهجه انفسى

فجعل القسيس يتهدد تلميذه فى الجهل وإصراره على الضلال . ولكنه لم يعدمه محبته وعطفه . وكان توثق عرى الصداقة بين الأب لامبير وأرنست كنزلو قد شجع هذا الأخير على سؤال صاحبه عن طرف من تاريخ أمه المسكينة تلك التى طالما كان يهتف بها فى أحلامه والتى لم يَرها قط فى حياته . وشرح الفتى أرنست للأب لامبير ما جرى قبيل مقتل والده وبعده ، وذكر له العهد الذى قطعه للكونته والأسرار التى وقف عليها ، ثم توسل إلى الأب لامبير فى إطلاعه على ما يعرفه من أنباء تلك المرأة المسكينة التى انتزع من أحضانها

فنهض الأب الجيزويتى وتزيا بزى « أحد مندوبى الشعب » كوميسير دى بيبل — وهو يقول: اعلم يا بُنى أن كل أزياء التنكر جائزة فى سبيل الدين والولاء والصداقة . وكل أصناف الملابس جائزة — حمراء كانت أو سوداء لا فرق بين الشارة المثلثة الألوان التى أحملها وأنا أمقتها ، وبين الشارة السوداء والشارة البيضاء ، كما لا فرق بين القبعة المحلاة بالوشى والقلنسوة ذات الرفرف العريض التى تلبس فوق الناصية المجزوزة أو الضفائر المتهدلة

وانحدر القسيس وصاحبه الفتى أرنست كنزلو من أعالى فورفيير إلى ضفاف نهر السون ، الذى يجرى للتق له مع نهر الرون فى طرف المدينة الغربى حتى بلغا أقصى حى كروا روس وجادة جيراف ، إلى الشارع الذى كان يقيم فيه أبوه والذى ولدت فيه أمه على ما يعلم . ثم قال له: كانت أمك من أهل هذه هذه المدينة ، ففى سنة ١٧٧٥ قدم أبوك ههنا فى حاشية الملك السابق فتعرف أبوك (وكان لا يزال ضابطاً فى الجيش ولم يرث لقب الكونتيه الرفيع) بأمك وطاردها حتى أوقعها فى حبائل غرامه وقد أخبرنى فى كثير من أحاديثه ، وكنت أشعر يومئذ بأن الواجب يقضى علىّ بكتمانها أن تلك المرأة كانت رحيمة القلب كثيرة الصلاح ، جمة الوفاء رقيقة العواطف ، وله الحق وله العذر فى أن يخجل ويستحى من مسلكه فى معاملتها ، وكثيراً ما أعرب لى عما يقدح فى قلبه من صريح الندم ، وما يحز فى ضميره من خالص التوبيخ على ماسامه إياها من سوء العذاب كما كان يحدثنى عن صفاتها الحميدة وخصالها الكريمة بلهجة تنم عن الحنان والمحبة . وقد اعترف لى أنه كان يفرط فى إساءتها وأن حياته يومئذ كانت سلسلة من مخازى الفسق والقاصرة والفقر . وفى ذلك الوقت حملت بك أمك . فلما انكشف السر لوالديها لعناها وطرداها ولكنها لم تعنف من جلب لها التعاسة والخراب ، إلا بعبراتها المنسكبة من مداممها الأبية وبما ارتسم على محياها من آيات الشقاء . وكان اسمها جرترود كنزلو . فأنت منتسب إلى جدك لأمك . وهذا هو السر فى حملك هذا اللقب الذى لم تكن تعرف علة اقترانه باسمك . ولم يمض على مولدك قليل

حتى مَلَّ عشرة الفتاة التى سلبها عفتها وهناءها .
ووصل إليه فى ذات يوم مبلغ من النقود أرسله إليه عمه مولاى الفيكونت السابق (الذى ورث لقبه بمدوفانه) فادعى أن لديه أشغالا تضطره إلى الرحيل إلى باريس ثم أكد لأمك المواثيق بوَشْكِ إيابه ومن ذلك العهد لم يرَ وجه المرأة المسكينة قط

فتنهد أرنست كنزلو الذى جمدت عيناه ، وكاد أن ينفجر من الغيظ : تبًّا لهؤلاء الأشراف ... وتبًّا لرجال الكنيسة الذين يمجدونهم ويعينونهم على التمادي فى الفساد . ألم يكن فى مقدورك أيها الراعى الصالح أن تنصح له بالعقد على أمى تلك المسكينة التى ذهبت ضحية غروره وشهواته؟ وهأنت ذا تتفجع عليها وكنت تملك إقناعه بتصحيح موقفه أمام الله والكنيسة ، دع عنك المجتمع والانسانية والعائل المسكين ...

فصمت القسيس ، وأطرق قليلا ثم قال :

— لقد أقر لى أولا فى عرض اعترافه وثانياً فى عرض الحديث بين يدى عمتك زوجته — الكونتس دى كابيت — وإلا ما كنت مذيعاً لك ما أنا اليوم ذاكره — أقول إنه أقر لى بأنه عند قدومه إلى باريس أرسل اعترافاً مزوراً إلى المسكينة جرترود (والدتك) مخبراً إياها بأنه كان قبل اتصاله بها قد تزوج من امرأة أخرى ، وبأن اسمه ليس برتران وهو الاسم الذى عرفته به وبأنه على وشك مغادرة أوربا إلى مزارعه فى قرجينيا ، حيث ما برحت لأمرتكم ضيعة أقطعكم إياها الملك لويس الرابع عشر وبعث إليها مع هذا الاعتراف مبلغاً من النقود هو نصف آخر مائة من الجنيهات التى كانت معه ثم سألها الصفح عنه واستودعها الله . وما خطر قط على بال والدتك المسكينة أن ما جاء فى هذا الخطاب من الأنباء قد يكون مخالفاً للصدق شأن سائر أحواله معها . وقد طلب إليها أحد الشبان الذين من طبقتها — وكان يعرف تاريخها — أن يتزوج منها ويتبناك ويسميك باسمه ، ولكنها أبت . وتعرضت بذلك لغضب أبيها وسخطه وكان قد آواها فى بيته حيث ما برحت تعاني منذ سقوطها سوء المذلة وقسوة المعاملة، وحيث كانت لا تجرؤ على رفع رأسها استكانة واستخذاء ، فرثت لحالها بعض السيدات الصالحات من معارفها ورتبت لها معاشاً يسيراً فذهبت الفتاة إلى أحد الأديرة ، وعهد بك إلى إحدى الحاضنات إذ كانت أمك من شدة الضعف والهزال بحيث لا تستطيع إرضاعك . فهل لك الآن رغبة فى مشاهدة الصليب المنصوب على لحد المرحومة والدتك فى مقبرة الدير ؟ إن رئيسة الدير من أتباعى الأقدمين ، وهى لا تزال تحن إلى ذكرى الراهبة مريم ماجدلين ، وهو الاسم الذى اتخذته والدتك فى رهبانيتها ، أما حقيقة اسمها فجرترود كنزلو

* * *

فى أصيل يوم من أيام الربيع الصاحية المشرقة ذهب ارنست كنزلو إلى مقبرة الدير فأبصر بين آلاف من الصلبان السوداء وأفيائها الممتدة على الآكام الخضراء ذلك الصليب المخصوص الذى تضطجع تحته أمه فى مثواها الأبدى . لقد تسمى بهذا الاسم (أعنى مريم المجدلية حوارية السيد المسيح وخادمته التائبة) كثير غيرها من أولئك البائسات الراقدات في تلك المضاجع وما هو إلا الشعار الذى وسمتهن به الأحزان والرمز الذى يشير فى لطف ورقة إلى ما كابدنه من الحب والجوى .

وجعل الفتى ارنست كنزلو يتخيل أمه وقد راحت تسكب الدمع تحت جنح الدجى وهى راكعة بين يدى ذلك الصليب الذي دفنت تحته أشجانها وهمومها ، فخر جاثياً وأنشأ يتلو صلاته وما به لوعة ولا أسى وإنما هى رهبة ملكت عليه مشاعره (فقد كان لا يعهد من أمه شيئاً حتى ذكراها) ورحمة ورثاء لما كابدته تلك الروح الرقيقة فى حياتها من الآلام التى حضرت بها إلى هذا الصليب حيث استماحت بهذا العروس السماوى من الذى فتنها واستغواها ، والغادر الذي هجرها وأشقاها .

وكان على مقربة من الفتى راهبة فى قناعها الأسود راكعة بجانب مضجع إحدى الراهبات الراقدات ...

وكان الواقف هنالك يلمح من وراء جدران المقبرة شرفات مدينة ليون الزاهرة ومناراتها ويشيم ومضات ولمحات من أمور الدنيا ومعترك الحياة فتنهد أرنست وبكى ثم قال : ألا رعاك الله أيها الموت وحياك ! أنت ملجأ الراحة الصامتة ومستقر السكينة العميقة ، لا تنالك أيدى العواصف ولا تزعج سكونك اضطراب القلاقل ! وكذلك خرج من المقبرة وإنه ليشعر كمن كان ماشياً فى قرار البحر العميق يتلمس مواطىء قدميه بين العظام المتناثرة من هياكل السفن المحطمة.

وعاد أرنست كنزلو أدراجه إلى المدينة ، وقد اشترى سراً بسر بعد أن اهتدى إلى قبر تلك الأم التى لم يحظ يوماً بندائها قائلاً « أماه ... »

محمد الحفني جمعة

مؤلفات
الأستاذ محمد كامل حجاج

ص
٤٠ بلاغة الغرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسي والانكليزى والألمانى والايطالى مع تراجم الشعراء والكتاب)
٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات فى الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)
١٨ نباتات الزينة العشبية (محلى باحدى وتسعين صورة فنية)
١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثانى فى جميع المكاتب الشهيرة
وكتب الزراعة تطلب من
شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا

يصدر قريباً
حياة الرافعى
للاستاذ محمد سعيد العريان

الاشتراك فيه قبل الطبع ١٠ قروش تدفع إلى إدارة الرسالة ، أو إلى المؤلف بعنوانه :

شبرا مصر . شارع مسرة رقم ٦

ثمن الكتاب بعد الطبع ١٥ قرشاً